

« كتاب التحدث بنعمة الله »

لجلال الدين السيوطي

تحقيق وتقديم الزبابت ماري سارتين

E. m. Sartain : Jalal al - din al - Suyuti, Vol.I Biography and Background & Vol.II. «Kitab al-Tahadduth binicmat Allah, PP . 242 & 383, Cambridge University Press , 1975, price : 8.00

( طبع القسم العربي وهو الجزء الثاني من الكتاب في المطبعة العربية الحديثة ، العباسية ، القاهرة ، مصر )

مراجعة الدكتور صفاء خلوصي

الأستاذ المتفرغ للبحث والتأليف

أنحفتنا مطبعة جامعة كمبرج مؤخراً بمجلدين أحدهما بالانكليزية والآخر بالعربية ، فأما الذي بالانكليزية فيبحث في علم التراجم مع مقدمة ضافية عن مصر تحت حكم المماليك الشراكسة ( ١٣٨٢ - ١٥١٧ م ) ويتطرق إلى حياة السيوطي وإلى الحياة العلمية في أيامه ، وبذلك يختم القسم الأول من الكتاب ، أما القسم الثاني من المجلد الأول فيعرض على أدب التراجم الذاتية في الأدب العربي الكلاسيكي ، ثم يأتي على وصف المخطوطات التي استعين بها في تحقيق نص السيرة الذاتية للإمام السيوطي ، وكان بودي لو أنه أدرج في المجلد الثاني بدلاً من الأول فهو إليه أقرب وبه ألتق . ويختم المجلد بملاحظات إيضاحية عن النص العربي .

وقد ذيل الكتاب - حسب الأصول - بثبتٍ بالمصادر والمراجع ، فضلاً عن شرح بالانكليزية لطائفة من الألفاظ العربية وفهرست للموضوعات وأسماء الأعلام .

أما المجلد الثاني فتحقيق جادٌ لكتاب « التحدث بنعمة الله » لجلال الدين السيوطي ، وهو ككل كتب السيوطي يجمع بين المتعة والفائدة ، ويلقي ضوءاً على حياة عالم يعد من أكابر علمائنا في تاريخ التراث العربي ، ويكاد لا يمضي يوم دون أن نرجع إلى كتاب من كتبه أو مؤلف من مؤلفاته كصدر ومرجع في بحثنا ودراساتنا .

عاش السيوطي ستين عاماً مجيداً ( ١٤٤٥ - ١٥٠٥ م ) فيكون بذلك قد عاصر الرينيسانس أو عصر النهضة الأوروبية ، فكان هو جزءاً من هذه النهضة في العالم الاسلامي ، إذ اشتهر بالتفسير والحديث والمناقشات العلمية والمجادلات الأكاديمية مع خصومه ومناوئيه ، وقد تضمنت ترجمته الذاتية الكثير من ذلك ، وباعتقاد المؤلفة السيدة سارنتين أن أسلوب السيوطي جرى على لغة الحديث اليومي الشائع يومذاك ، غير أننا لم نجد إلا القليل مما يؤيد هذا الزعم في مضامين الكتاب .

وليس من شك في أن المؤلفة الفاضلة مصيبة فيما ذهبت إليه من أن تحقيقها إسهام في الدراسات العربية الأساسية ، وأن الكتاب مصدر رئيسي لجميع الدراسات المقبلة عن السيوطي والحياة العقلية في أواخر عهد المماليك بمصر .

وأراني في غنى عن القول إن عنوان الكتاب مستوحى من الآية

الكريمة : ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ . وهو في الحق عنوان مبتكرة هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة

لكتاب في موضوع السيرة « الترجمة الذاتية » .

ومن أمتع فصوله الفصل السابع عشر ( ج ٢ ص ١٦٠ ) وعنوانه :  
 ( ذكر نعمة الله عليّ في أن أقام لي عدواً يؤذيني وابتلاني بأبي جهل يغمصي  
 كما كانت للسلف مثل ذلك ) . وفي هذا أورد الامام السيوطي نقلاً عن  
 بعض المصادر ما يلي :

ما كان كبيراً في عصره إلا كان له عدو من السّفلة ، فكان لآدم  
 عليه السلام إبليس ، وكان لابراهيم نمرود ، وكان لوسى فرعون ، وكان  
 لمحمد ﷺ أبو جهل .

ومن المعروف في صحيح البخاري وغيره ما قاساه سعد بن أبي وقاص ،  
 أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، من جهال أهل الكوفة ، وشكواهم إياه  
 لعمر بن الخطاب ، حتى قال له عمر : شكوك في كل شيء ، حتى قالوا  
 إنك لا تحسن أن تصلي : فانظروا بالله إلى الذين أسلموا البارحة يزعمون في  
 صاحب رسول الله ﷺ ، الذي كان يُسمى ثلث الإسلام أو ربعة ، أنه  
 لا يحسن الصلاة ، ( ج ٢ ص ١٦٢ ) .

ولم يخل الكتاب من استطرادات ، على طريقة الأقدمين المألوفة ،  
 من نحو استطراده في مسألة زيادة العمر ونقصه ، ومن سُمِّي من هذه  
 الأمة بعبد الرحمن .

وقد أوجدت الدواعي الفنية ، لطبع الكتاب في مجلدين أحدهما عربي  
 والآخر انكليزي ، صعوباتٍ للقارئ ، فمن ذلك مثلاً أن مستهل الفصل السابع  
 محروم مع الإشارة إلى وجود هامش ، فإذا بحثت عن الهامش لم تجده إلا  
 في نهاية المجلد الثاني مشروحاً بالانكليزية ، مع أن النص يتطلب الشرح

بالعربية في الصفحة ذاتها ، ولا أدري متى سيُقلع المستشرقون عن هذه المادة الغربية وهي وضع هوامش بالانكليزية لنصوص عربية ، بعد أن أفلحوا عن وضعها باللاتينية ، فإذا كان القارىء لا يفهم الشرح إلا بالانكليزية فمن باب أولى أنه ان يفهم النص العربي أيضاً ، فلا جدوى من مراجعته الكتاب ، ثم إن المفروض في المحققة أنها تحسن العربية وتحسن الشرح بها ، علاوة على أنها متزوجة من عربي ، فهي عقيلة الدكتور حمدي سكوت ، على ما تذكر في سلسلة من شكرتهم وأثنت عليهم لمساعدتهم إياها في إعداد الكتاب .

هذه ملاحظة وديت أن أذكرها لتتخذ المطبوعات الاستشرافية في المستقبل منحىً جديداً في تحقيقها وطباعتها بهدف تيسير مراجعة المصدر على القارىء ، لاتعسيره .

وكان بالامكان إخراج الجزأين في مجلد واحد ، فما هما من الضخامة بحيث يعسر ذلك ، وكثيرون هم القراء الذين يفضلون الطبقات ذات المجلد الواحد على ذوات المجلدات المتعددة ، إن سمح حجم الكتاب بذلك ، وأنا واحد منهم .

ولقد أوضحت المحققة الفاضلة طريقة تحقيقها لمخطوطة تيوبنجن Tübingen التي اعتمدها أصلاً ، بالإضافة إلى خمس مخطوطات أخرى راجعتها ، غير أنها لم تصف لنا أيّاً من هذه المخطوطات ، حتى ولا المخطوطة الأم ، ولم تورد صورة ضوئية لورقة من ورقاتها لنرى مدى الصعوبة والدقة في التحقيق ، بالرغم من أن الكتاب الذي بين أيدينا هو في الأصل رسالة دكتوراه من

جامعة كمبرج المفروض فيها - كما يبدو من كلمة الشكر الاستهلالية -

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة

www.alukah.net

أنها دُرست أو على الأقل روجعت من لدن البروفيسور سارجنت Serjeant والدكتور هوبكنز Hopkins .

ومع أن المحققة تزعم أنها تحاشت الرسم الإملائي القديم للمخطوط ، فإنها لم تراع هذه القاعدة دائماً ، كما في لفظة ( مسألة ) مثلاً ، حيث وضعت الهمزة على كرمي الباء ، وحقها في الإملاء الحديث أن تكون على كرمي الألف ، وقد برعت - والحق يقال - في علامات التنقيط ، إلا في مواضع قليلة حيث كان الأفضل وضع الفارزة أو القاطعة بدل النقطة ، ولا سيما حينما يكون ما يليها مستهلاً بالفاء أو الواو .

وقد وقع سهو غريب في العنوان العربي للجزء الأول إذ جاء فيه ( لجلال الدين السيوطي ) والصواب بإسقاط حرف الجر ، وأكبر الظن أن الرقعة المخطوطة أو « الكيشيه » التي أعدت في الأصل للجزء الثاني استعملت في الجزأين معاً ، فجاء هذا الخطأ الفاضح ، بيد أنه أياً كانت النواقص فإن الجهد جليل ولن يعدم بين جلة العلماء والباحثين من عرب ومستشرقين الكثير من أسنة الشكر والثناء والتقدير .

د. صفاء خلوصي

اكسفورد